الاستقلالات (*)

سماح ادريس

كُلَّما استعرضتُ أمامَ ناظريَّ مجلَّداتِ مجلةِ **الآداب** على امتداد ثلاثةٍ وأربعين عاماً، وكُلَّما حاولتُ أن أحدّد اتّجاهَ حركةِ المجلاّتِ الثقافيّةِ في لبنان وفي الوطن العربي عبر المستقبل المنظور، يَلمع أمامي مصطلحان اثنان: الانتماء والاستقلال.

فلطالما طَرحَ كُلُّ رئيس تحرير مجلّة ملتزمة ومستقلّة على نفسِهِ السؤالَ التالي: كيف أجعل مجلتي منتميةً إلى قضيّة أو فكر أو مشهد ثقافي أو شعب، وأنأى بها ـ في الوقت نفسه ـ عن مالِ الأنظمة وفكرويّة المجلة وإرهابِ «المشهد الثقافي» والجمهور؟

أ ـ لنسلّم أوّلاً بأنّ المجلةَ الثقافيةَ اللبنانيةَ العربيةَ المنشودة هي تلك التي تتوفّرُ على مراسلين نشيطين في أكثرِ الأقطارِ العربيّة أو كلّها، فضلاً عن آخرينَ في الحواضِرِ العالميّة (نيويورك، باريس...). والمجلة المنشودة هي التي تستفيد من آخر المستجدّات التقنيّة، كالوسائل السمعيّة والبصريّة، والكومبيوتر؛ وتكلّف فناناً أو رساماً كاريكاتورياً بمرافقة بعضِ المقالات أو القصائد أو القصص؛ وتسخو على المجلة بالألوان والورق الجذّاب؛ وتجتذب إلى جانب الأقلام الشابّة أقْلاماً ذاتَ ثقلٍ وتراث وصدقيّة أو جَدَل في أوساط القرّاء. لكنّ حساباتٍ سريعةً لِكُلْفَة هذا المشروع تبيّن لنا أنّ مثل هذه المجلة تكلّف صاحِبَها ما لا يقلّ عن عشرة آلاف دولار شهريّاً لثلاثة آلاف نسخة. ثم مَنْ يضمن بعد ذلك أن لا تُصادَر في غيرِ بَلَدٍ عربيّ، وُيتْلَفَ ورقُها الجذّابُ ورسومُها الفنيّة مع الدولارات الثمينة، ويذهبَ جَهْد صاحب المجلة عبثاً؟

لكنَّ الأحرى بنا أوّلاً أن نسأل: مَنْ أين يأتي صاحبُ المجلة أو رئيسُ تحريرها بمثل هذا المبلغ الضخم؟ جوابي بسيط: كلّما رأيتم مجلةً بالمواصفات التي عددتُها لكم آنفاً ثِقوا أنَّ الأنظمة العربيّة أو غير العربية وراءها.

أمامي الآن عدد آذار من الزميلة مجلة **العربي** التي تصدرها «وزارةُ الإعلام بدولة الكويت» وتطبعها «مطبعةُ حكومة الكويت»، كما جاء في الصفحة الأُولى من المجلة.

مجلة **العربي** مجلّة راقية من حيث الإخراج والورق والرسوم والألوان، وإن كانت تحتوي على مراجعات سخيفة أو قصائد عمودية تافهة. والمجلة لا تبخل على القارئ بالكتّاب اليساريين وشعراء الحداثة والمتّهمين بالردّة؛ ومن هؤلاء: جابر عصفور وشوقي بزيع ونصر حامد أبو زيد. ولستُ هنا في وارد الدفاع عن التبريرات التي قد يعطيها بعضُ هؤلاء للكتابة في مجلّة تصدرها حكومة الكويْت، أو في جريدة صاحِبُ امتيازها مَنْ يسمّى بقائد القوات المشتركة في «عاصفة الصحراء»؛ فلعلها تبريرات تقنع بعضَنا. ولكنّ المرجّح أن مثل هذه المنابر تشكّل ضربةً للمجلات الثقافية المستقلّة، وللأفكار الثقافية المستقلّة، وتمثّل رقابةً مزدوجةً على الكاتب العربي: رقابَة الدولة النفطيّة، ورقابةً يمارسها الكاتب في هذه المجلة على نفسه. ويتعزّز هذا الاستنتاجُ حين نعلم أنَّ المجلة النفطية أرخصُ بعدَّة أضعاف من أيّ مجلة مستقلة، وأنّها تدفع لمَن تَشتَكتب أضعافَ ما تدفعه الثانية، وأنَّها مسموحة في أكثر البلدان العربيّة خلافاً للمجلة الثقافية المستقلّة التي تُمنع في أكثر هذه البلدان، وأنَّ أكثر الكتّاب شهرةً وأحياناً أكثرَهُم قيمةً يؤثرون الكتابة في المجلاّت النفطيّة لعدة أسبابٍ مِنها سَعةُ انتشارها بما يتجاوز انتشار أيّة مجلّة مستقلّة.

ولا أريد أن أوحي للسامعين بأنّ الاستقلال متعةٌ مطلقة، أو أنّه ـ على النقيض من ذلك ـ عذاب شديد. فالمجلة المستقلّة متعةٌ لأنّها لا تقبل أنصافَ المواقف فيما يتعلّق بالقضايا السياسية والقوميّة التي تهزّ بلادنا هزّاً. ليسَ ثمةَ ما يسرُّ أكثر مِن أن تشعر بأنّك قادرٌ، مثلاً، على انتقاد الولايات المتحدة والنظام العراقي ومؤتمر مدريد في الوقت نفسه، وأنّك لست بحاجة إلى أن تؤيّد نظاماً لمجرّد بُغضك لسياسةِ نظامٍ آخر. وشعورُ المتعة هذا يتضاعف حين تنصبُّ عليك رسائلُ القرّاء لتثبّت أقدامك، ولتقولَ لك: إنّ المبادئ لا يَحْسُنُ بنا أن نتخلّى عنها لمجرّد كونها عصيّةً على التحقّق، وأنّ الموقف الأخلاقي والمنسجم مع نفسه هو الذي يعطي الثقةَ بالثقافة التي تحملها مجلّتُك المستقلّة وهو الذي ينفّر القارئ مِن مجلات الأنظمة أو مجلاّت التكتكات النظاميّة. غير أنّ الاستقلال عذابٌ من عدة نواحٍ أخرى: فهل تعيش المجلة المستقلّة على رسائل القرّاء المشجّعة وحدها؟ ثم أليس لاستقلالنا أيضاً حدود، وإنْ كانت لا تضيق كما هي حال حدود المجلة التابعة للأنظمة: فهل كتّابُ المجلة المستقلّة أو رئيس تحريرها بمنأى عن الخوف مِنَ الرقابة والإرهاب وشبح الفقر والتوقف عن الإصدار؟ وهل الاستقلال هو

(*) نصّ الكلمة التي كان من المفترض أنْ أُلقيها في ندوة «الإعلام الثقافي في لبنان ـ واقع وآفاق»، التي نظمّها النادي الثقافي العربي في بيروت بين ٢٥ و٢٧ أيار ١٩٩٥.

الاستقلال عن الأنظمة العربية وحدها، أم أنَّ هذا الاستقلالَ الأخير هو جزءٌ فحسب من شبكة متعالقة من استقلالات تتوقُ إليها النفسُ المفكِّرةُ حتى في عزّ التزامها بما تودُّ أن تستقلّ عنه؟

هنا انتقل، توضيحاً للنقطة الأخيرة، إلى نوعين آخرين من الاستقلال أشرتُ إليهما في بداية مداخلتي. لكنّي لا أودّ أن أفعل ذلك قبل أن أطرُدَ عن أذهان بعضكم ما قد يكون عِلق بها من أنّي ـ على سبيل المثال ـ أرى دورَ المجلة الثقافية **بالضرورة** معادياً للدولة ولفكرة الدولة في حدّ ذاتها ولجميع سياسات الدولة في مختلف مراحلها. فالحقّ أن مثل هذا الموقف الإطلاقي قد لا يفيد في زمننا الحاضر لأنَّ من واجب الدولة في بلادنا العالمثالثية أن تقومَ بمهامّ تعجز عنها مؤسساتُ المجتمع الأهلي ولاسيّما في ميادين الدفاع والتربية وحماية المنتوجات الاقتصادية الوطنية. فلنقلْ إذن بضرورة إيجاد مسافة واضحة بين المجلة الثقافية وسلطة الدولة، وذلك من أجل ضمان حريّةٍ أكبرَ للكلمة وللموقف. وأودّ كذلك أن أبدّد عن أذهان بعضكم وَهْمَ أنني ـ كمدير تحرير مجلة ثقافية مستقلّة ـ أُعفي السلطة السياسيّة من أيّ دورٍ تقوم به إزاء المجلات الثقافية المستقلّة. صحيح أنّ استمرارية هذه المجلاّت مرهونةٌ بدعم الأفراد في المقَام الأوّل، لكنَّ على الدولة (وأتحدث عن لبنان الآن) واجباتٍ أساسيّةً يجب أن تضطلع بها، وبخاصةٍ بعد ارتفاع أسعار الورق وأجور الشحن والبريد والاستكتاب وإغلاق الأسواق العراقية والليبيّة والجزائريّة في وجه المطبوعات وإغلاق أسواق كثيرة أخرى بسبب غياب الحريّة وسيادة النظم الشموليّة. ولعلّ أهمّ ما بِمُكْنَةِ الدولة اللبنانية أن تقوم به لدعم المجلات الثقافية اللبنانية هو خَفْضُ تكاليف الشحن وأجور البريد عليها، ومدُّ هذه المجلات بكميّات خاصةٍ من الورق يقلّ ثمناً عن ذاك الذي نحصل عليه من الأسواق الايطالية أو غيرها. هذا ما نريده من الدولة اللبنانيّة.. ولا أعتقد أن المجلة الثقافية المستقلّة تريد غير ذلك منها، وإلاّ تحوّلتْ هذه المجلةُ من منبر حرّ إلى منبرٍ «حريريّ»... كما هو حال مجلّةٍ يصدرها نادٍ ثقافيٌّ لبنانيٌ عزيزٌ على قلوبنا جميعاً دَشَّنَ العددَ الأوّل منها بثلاث صور للرئيس رفيق الحريري وصورتيْن لوزير الدولة للشؤون المالية فؤاد السنيورة، وواحدةٍ للنائب بهيّة الحريري، فضلاً عن مداخلتيْن للأوليين تتصدران الصفحات الأولى من المجلة!

ب ـ غير أنَّ ثمّة استقلالين آخرين تتطلّع إليهما المجلةُ الثقافيةُ المستقلّة، إلى جانب استقلالها الماديّ عن سلطة الدولة. لكنهما أشدُّ تعقيداً من الاستقلال الأوّل، لأنّهما ـ كما أسلفتُ الذِّكر ـ متعلّقان بما تُحبُّه هذه المجلة الثقافية وما تُلزِمُ به نفسها طواعيةً وعن طِيب خاطِر. فأما ثاني هذه الاستقلالات فهو استقلال المجلة النسبيّ عن الفكر الذي تنتمي إليه. كيف أنتمي إلى فكرٍ ما، وأعلن في الوقت نفسه لِذاتي وللآخرين، استعدادي الدائمَ لعدم التماهي مع رموز هذا الفكر وقوالِبِهِ ومع جميع مراحله عبر التاريخ؟ ذلك هو السؤال الذي على المجلة الثقافية المستقلة أن تطرحه على نفسها دائماً. فالمجلة الثقافية الفاعلة، في رأيي، هي تلك التي تحمل قضيّة فكريّة وحضاريّة، لكنّها دائبةٌ الاستقلال عمّا يقيّد نظرتها الموضوعيّة أو يعوّقها، دائمةُ الاستعداد لأن تعلن خطأ الفكر الذي تتبنّاه في مسألة أو أكثر، وأن تجهر بعيوب الرموز السياسية أو الفكريّة ومظالمها حتّى في الأوقات التي تدافع فيها المجلّة عن العناوين العريضة التي تلتزم بها هذه الرموزُ. ومثالاً على ذلك، فإنّ على المجلة الثقافية ذات المنحى القومي العربيّ ـ لكي تكتسب صدقيّتها الثقافية ـ أن تعلن أخطاءَ الأنظمة «العروبيّة» فكراً وممارسة، وأن تدينَ مظالِمها، وأن تتفهّم مَنْ ينقد شخصَ عبد الناصر نفسه لا «مراكز القوى» المحيطة به فحسب. وعلى المجلة الثقافية المؤمنة بالماديّة الجدليّة، كمثال آخر، أن تنظر بعين واعية إلى تناقضات ماركس نفسِه (كتماهيه مع المستشرقين على سبيل المثال) وأن تعلن مسؤوليةَ لينين نفسِه (لا ستالين ومَنْ خَلَفَهُ فحسب) عن القمع والإرهاب وبدايةِ «انحراف» الثورة عن مبادئها الأولى. وفي غياب مثلِ هذا الاستقلال النسبيّ بين هيئة تحرير المجلة الثقافية والفكرِ الذي تتبنّاه، فإنَّ التشدُّق بـ«التجديد النظريّ» لن يعني أكثر مِمّا يعنيه «النقدُ الذاتيّ» الذي يمارسه أُمناءُ الأحزاب اليساريّة والقومية العامّون!

ج ـ وأمّا الاستقلال الثالث والأخير فهو استقلال المجلة الثقافية استقلالاً نسبيّاً عن الجمهور الذي تطمح في الوصول إليه أو التعبير عن حاجاته، وعن المشهد الثقافي الذي تسعى المجلة إلى تمثيله. فقسمٌ لا يُستهانُ بِهِ من الجمهور القارئ يمارس هو الآخر «إرهاباً» غير مباشر على هيئة تحرير المجلة الثقافيّة: فهو يؤثِر القضايا الفكريّة الراهنة على القضايا اللغويّة والأبحاث المتعلّقة بالتراث الأدبي القديم؛ وهو يفرح «للمعارك» الثقافيّة ويفضّلُها على البرودة الأكاديميّة والمربّعات أو السِّهام المستخدمة في التحليل البنيوي مثلاً؛ وهو يرغبُ في الدراسات القصيرة وينفر من الإطالة؛ وهو يطالبك بالمثابرة والتطوير والتجدد والتفنُّن والإبداع ثمّ يسألك أن «ترحمه» فتخفض سعر المجلة إلى ما دون الخمسة آلاف ليرة لبنانية!

و«المشهد الثقافي» الذي ترغب المجلةُ بتمثيله على صفحاتها ليسَ أقلَّ إرهاباً. فالمجلة مطالبةٌ بأنْ تواكِبَ الحالة الثقافيّة العربيّة، وإلاّ كانت نبتةً بلا جذور، وهامةً بلا جَسَد. نبضُ الشارع الثقافي هو عصب المجلة الثقافية الفاعلة: لكنّ هذا النبض لا يخلو من فَوَرانٍ، وسِبابٍ، وضيق صدرٍ بالجديد، وتكلُّس عند القديم، وتنطُّح، ومغالاة، وسوء استعمالٍ للمراجع، وجهل باللُّغات الأجنبيّة (ولاسيّما الانكليزية). وفي المقابل ثمّةَ جانبٌ آخر مِن «المشهد الثقافي» يمثِّلُه الكتابُ المغرقُون في الخضوع للنظريّات النقديّة الغربيّة، وفي نبذ كُلّ ما عداها، وإشعارِك بالغباء إن لم تمتثل لكلِّ حرف خطَّه هابرماس أو دريدا أو ادوارد سعيد.

إذن هناك تيّاراتٌ فكريّة عاتية تعصف بالقارب الثقافيّ، وتحثّه ـ بالحدَّةِ، والشراسة، والتبجُّح أحياناً ـ على الانجراف فيها. ووسط هذه التيّارات تقف المجلة الثقافية الحريصة على الاستقلال لتسأل نفسها: أأُواكِبُ الموجَ، أمْ أسبقه؟ وهل في مقدوري أن أكونَ طليعيّة دون أن أُواكب؟ لكنّ لهذه الأسئلة ولإجاباتِها حديثاً آخر.

بيروت